

(نجاهة)

كبرنا وترعرعنا على أصوات القنابل وصفارات الإنذار، والخوف من غارة تُشن علينا، ونحن بين صفوف الطلاب في المدرسة. كل ما أتذكره معلمي في الصف الأول، وهي تلوح بيدها وتنادي بصوتها المرتعش "تعالوا ادخلوا بسرعة... الطيارات جتنا".

ندخل السرايب والملاجئ المظلمة وأجسادنا ترتعش خوفاً، ونلوذ ببعضنا البعض، أرواحنا تتشابك قبل أجسادنا، نبحت عن جدار صلب نلتسق به ليحمينا، نشعر برطوبة الجدار ورائحة السرداب العفنة والأوراق المتناثرة على الأرض تحت أقدام الأطفال، تراقب أعيننا وتنصت آذاننا إلى رعيد الطائرة وحفيف الصواريخ التي تطلقها، ولا ندري إلى أي صوب ذهبت، لكن صوت الانفلاق يخبرنا عن مداها البعيد أو القريب.

حين تنتهي الغارة ونخرج من ظلمات السرداب إلى نور الشمس؛ نتاهفت حتى نصل إلى باحة المدرسة لنكمل الاصطفاف ورفعة العلم؛ يرتفع العلم رويداً رويداً ونحن نردد نشيد (موطني).

كلمات حفظناها، وهل كنا حينها ندرك معناها؟!

علمني أستاذي وأبي وأمي حب الوطن، والبقاء من أجل الوطن، مرت السنين وأنا أكافح للبقاء في الوطن، ثم عادت صفارات الإنذار وجاءت الجيوش إلى الوطن وتشتت الوطن مرة أخرى، كنت أبحث عن أرض أتكى عليها، تحميني وأولادي، كلما نظرت في عيون أولادي تعود بي الذاكرة إلى (سردابي المظلم) ذي الرائحة العفنة، هل سأرى ابني هناك يبحث عن حائط يحميه؟ وهل سيردد (موطني)؟!

كبرت ولم أحظ بأمن الوطن؟! بلغت الأربعين وما زلت أبحث عن حائط دافئ يحميني من غربتي في الوطن، فرّت من عمري أربعون سنة من البحث والتشرد والتنقل والخسارات والأناشيد، أصبحت من أرشيف ذكرياتي، رحلت وتركت الوطن لأهل الوطن الذين لم أحظ بهم يوماً، وحين نزلت إلى مدرج الطائرة ودخلت بلداً آخر بحثاً عن مكان آمن ألوذ به، شعرت حينها أنني ولدت من جديد وأصبح لي وطن أنشد من أجله، وجدران تحميني من صواريخ قد تسقط على رأسي في أية لحظة.

أنزلت امتعتي وأنا مبتهجة حتى وصلت ضابط الجوازات، أعطيته جواز سفري، كانت نظراته إلي تقلقني سألني:

- ما اسمك؟

- نجاة.

- ما سبب الزيارة يا نجاة؟

بعد صمت وتفكير وقلق أجبت:

- جاية أدور على وطن!

أعاد نظرة الريبة إلي مرة أخرى، ثم وضع ختم العبور على الجواز، رن صوت الختم في أذني، اهتز جسدي "أم خالد إصحي، كفاك نوم، القطار فاتك ثلاث مرات".

بعد أن صحوت من غفوتي بجسدي المنهك بفعل الرحلة التي رحلتها، أدركت حينها أنني ما زلت مواطنةً في بلادي، وما رحلتي سوى حلم، وما زالت أسمع صوت الختم في أذني وهو يوقظني، وتتمر من أمامي مواكب شباب تهتف وتتظاهر (نريد وطن) لتصدهم إطلاقات الرصاص وقنابل الدخان.

رقية عبوش